

<';style='table-layout: Auto ' >

<border=0



صحيفة يومية سياسية تصدر عن مؤسسة تشرين للصحافة والنشر - دمشق - سورية

تم آخر تحديث في الساعة: 00:29:37 من يوم: 2006/12/16 [-5 س بتوقيت غرينتش]



تحت مقصلة إيكوشار

دمشق

صحيفة تشرين

آفاق

السبت 16 كانون الاول 2006

د. ناديا خوست

في سنة 1936 هدم الاحتلال البريطاني مركز بابا القديمة ليضرب الثورة الفلسطينية. في تلك السنة رسم إيكوشار مخططات تفصيلية للمندوب السامي تشق الطرقات لمصفحات الاحتلال وسط الأحياء العربية ليكسر إضراب دمشق الستيني. جمع إيكوشار تلك التفاصيل في سنة 1968 في مخطط تنظيمي للمدينة.

يبدأ المخطط من رؤية استعمارية: دمشق أرض فارغة لاذاكرة فيها ولاعمارة ولأحداث تاريخية. يثير الربية اليوم أن يسلم شخص من زمن الانتداب مدينة كاملة. أية مدينة! عاصمة أول دولة عربية، مدينة مشهورة بخضرتها ومياهها، أقدم مدن العالم المأهولة، عاصمة أول بلد استقل في عصرنا الحديث، المدينة التي اختارها ابن عربي وعبد القادر الجزائري وصاغ فيها فخري البارودي "بلاد العرب أوطاني"، المدينة التي بقيت دائما سند فلسطين وقلب العروبة النابض!



قال إيكوشار لمهندسة فرنسية انتقدت مخططة: لاتدفعي عن دمشق، هذه مدينة قذرة! كان قد سجل منذ أيام الانتداب أنه يقتل الأحياء العربية "لأجل النظافة والجمال"! وبمخططة التنظيمي هدم بناء البلدية التي أعلن منها استقلال سورية ورفض الوطن القومي الصهيوني، واقتلع جامع بلبغا، ثاني أثر معماري ثمين بعد الأموي، وصمم هدم محطة الحجاز وهدم المدرسة الشامية التاريخية، ونقل المجلس النيابي إلى كفر سوسة لإلغاء ما يحمله من الذاكرة، ورسم فوق حمام القرماني كتلتين من كتله البشعة، وأفقد دمشق بساطتها، واستولد فئات عقارية سوقت هدم البيوت العربية والتجارة بالبحرات والسقوف العجمية.

ربما سوَّغ الوهم بالمعاصرة، تسليم دمشق لعقل استعماري يتعالى على العمارة العربية! لكن الرئيس حافظ الأسد أوقف مخطط إيكوشار. وكان يفترض أن يصوغ الفنيون في المحافظة نصا يلغيه. على كل حال، طويت منذ عقود "موضة" هدم المدن القديمة، وولدت مؤسسات ترعاها، وتراكت توصيات إيكوموس واليونسكو. أصبح مخطط إيكوشار مخططا متخلفا بعيدا عن العصر! أليس العجيب، إذن، أن ينبش بعد أربعين سنة تقريبا فيقدم بخطوط محلية؟

فلماذا مثلاً لا يؤخذ آراء المؤرخين والفنانين والصحفيين في موضوع هدم الأحياء القديمة؟! فقد نظم استفتاء في سويسرا لنقل شجرة بضعة أمتار، ألا تستحق دمشق ما يشبه ذلك؟!

اقتلاع السوق العتيق وهو من أسواق ماحول القلعة التي عاشت منذ ثمانية قرون، خطأ كبير. وهو مقدمة لتنفيذ "مضمار الخيل" حول المدينة القديمة! كان هذا المشروع يثير الاستهجان يوم رسمه ايكوشار في أيام الانتداب. فأى تخلف في أن يصبح شارع الملك فيصل أوتوسترادا بعد أن استبعد العالم شق مركز المدن بطرق السيارة! يستكمل هذا الخطأ بخطأ آخر: الاستملاك الذي يخرب بيوت الناس. ونحن نتوغل في خصخصة القطاع العام!

منذ وقت طويل تحوم العين على هذا المقطع من مخطط ايكوشار. أوقف هدم السوق العتيق مرات، لأن هدمه مسؤولية ثقيلة. فالسوق يتصل تاريخيا بقلعة دمشق. وسخ؟ أهله ونطفوه! لا ينجد من ثقل هذا الخطأ أن يتوكأ على لجنة صاغت ذات يوم تقريراً بدأته: "ثبت بما لا يحتمل الشك" أن البيت الذي خرج منه يوسف العظمة إلى ميسلون ليس بيته! فثبت العكس! وقع بعض أعضائها مخطط ايكوشار، ورأى بعضهم هدم قبة النسر في الجامع الأموي لأن عمرها فقط خمسمئة سنة! ولماذا تعتمد هذه اللجنة ولا تعتمد لجنة أخرى أوصت بحماية هوية المدينة العربية؟! مع ذلك، لا يدهشنا أن تصيف محافظة دمشق هذا الورد إلى تاريخها! لكن الخطر أن تنقلب وزارة الثقافة على واجباتها. ألا تتساءل لماذا قرر مجلس الآثار في زمن وزراء الثقافة السابقين حماية أبنية ذات قيمة تاريخية هناك، واتخذ قراراً مياقضا في زمن السيد رياض نعتان آغا؟ سجل على مديرية الآثار أنها وافقت على هدمها أو أوصت به. فهل يقبل العقل أن تشرع وزارة الثقافة مخططاً تنظيمياً عقارياً اعتمدته محافظة؟ أليست مهمة وزارة الثقافة الرفيعة ترشيد المشروعات السكنية والسياحية، ووظيفتها استراتيجية، لاتتصل بالتسويق والمشاريع الاستثمارية!

قد يرى بعض المثقفين أن انتعاش مخطط ايكوشار وتفريط وزارة الثقافة في صلاحياتها، أحد تجليات اجتياح السوق. لكن ذلك لا يحدث في بلاد أخرى تحكمها السوق! فهناك حد أدنى من الوعي يتبين أن المعمل الذي يخصص قد يستعاد، لكن ما يهدم من المدينة لا يستعاد. لذلك نرى أن اقتلاع السوق العتيق بما فيه والتحضير لاقتلاع شارع الملك فيصل يقع في سياق عولمة المدن، ومحو الذاكرة التاريخية، وإضعاف المؤسسات الثقافية. لا يستطيع ذلك الهجوم أن يظهر دائماً في شكل سياسي، لكنه ينقض في شكل ثقافي ومعماري. ويتجاوز حتى توصية الوثيقة الصهيونية المؤرخة تل أبيب - موسكو 1985 التي يستنتج منها حتى الغافل قيمة الهوية المعمارية الوطنية في المقاومة: "لاتهدموا علنا المعالم التاريخية والأثرية للشعوب غير اليهودية.. ولكن احجموا عن ترميمها وستنداعى تلقائياً بعد فترة من الزمن. وستفككها الغوءاء من هواة الآثار حجراً، حجراً. عليكم أن تتظاهروا إذ تشاهدون ذلك بانشغالكم الكبير بالقضايا الاقتصادية. الشعب دون تاريخ كالطفل دون أبوين... وسيساعدنا هذا أن نقول عقله بمفهومنا للحياة ونمط تفكيرنا. بهذه الطريقة يمكن أن تفقد شعوب كاملة وجهها الحقيقي. في البداية يجب أن تفقد تاريخها وتقاليدها، ومن ثم سنكونها من جديد بشكلنا ونمطنا.

لذلك لابد أن تتساءل في كل مشروع هل يقوينا في الصراع مع العدو الصهيوني أم يضعفنا. هل يرضي الرأي العام، ويُسعر المواطنين بأن المسؤولين يخدمونهم أم العكس. وهل نكسب الغيورين على حضارتنا في العالم أم نخسرهم. بينت سورية أنها هي التي تلتزم بالقوانين الدولية وأن عدونا هو الذي يخرقها. كتب أحد أصدقاء سورية في اليونيسكو: "اسم المشروع توسيع شارع الملك فيصل. وهو اختراق طريق سريع عبر النسيج الموجود في الضواحي القديمة الواقعة شمال المدينة داخل السور. هذا الطريق مرسوم في مخطط ايكوشار سنة 1968. وسترافقه عملية عقارية كبيرة بناء أبنية ... واستملاكات ..."

وبعد، لاتحكم العواطف الشخصية مطلقاً ما كتبناه أو ماسنكتبه ويمس وزارة الثقافة. بل نقدر للسيد رياض نعتان آغا قوله إنه قبل أن يكون وزيراً كان يشاطرننا رؤيتنا إلى المدينة القديمة. لكن لابد من الإشارة إلى رده علينا بمقالة قصد بها غيرنا أيضاً. نؤكد ببساطة أننا اعتمدنا تصريحه المنشور في العدد الثاني من مجلة الرواق، وفي العدد 13133 من جريدة الثورة، وهو تصريح لم يكذبه. قال: 1 - "ما يعيق تنمية بعض المناطق يتمثل بالرغبة في تسجيل عمرية وأرواد على لائحة التراث الإنساني حيث تشتت اليونيسكو عدم المساس بها". وقال: 2 - "من الواجب إعادة بناء أرواد بشكل حديث وجميل وأنيق لذلك يجب تنفيذ المخطط التنظيمي الذي وضعته محافظة طرطوس لأرواد وتقليص المناطق الأثرية فيها كيلا تعيق الآثار عمليات التنمية". وقال:

3- "لا يمكن أن تعطل مشروعات التنمية قرناً من الزمان في انتظار التنقيب".

4- وضع حماية الحجر ضد حماية البشر، بالرغم من تلازمهما، فبدأ أن الحاجات الوطنية والإنسانية تناقض حماية أرواد وعمرية.

تقديراً لمكانة وزارة الثقافة كتبنا: "لا يجوز أن تلحق وزارة الثقافة بمشروع الإدارة المحلية المشغولة بالمساكن، أو بوزارة السياحة المشغولة بالفنادق، أو بوزارة الاقتصاد المشغولة بالسوق". ومن حق من يقدر مكانة وزارة الثقافة أن يراها مؤسسة ذات رؤية استراتيجية رفيعة، وأن يرى مديرية الآثار سلطة أرفع من سلطة المحافظات وأوسع نظرة من المخططات التنظيمية والمشروعات السياحية. لأنها تتناول الهوية الوطنية والبنية الروحية والتراث الحضاري والأثري والمعماري.

على كل حال، ليست العبرة بالكلام المرصوف والعناوين الدرامية، بل بالفعل: قدمت وزارة الثقافة لمخطط ايكوشار إجازة باسم مجلس الآثار. فهل هذا ثمرة معرفة التاريخ؟ ليست المسألة أن نعرف التاريخ فقط، بل ماذا نعمل بتلك المعرفة؟. المسألة أن نفيد من معرفة التاريخ لنثبت هوية المدن العربية أمام الهجمة الصهيونية التي تفتقر إلى العمق التاريخي. صاغ فهم علاقة العمارة بالتاريخ، ومعرفة معايير حمايتها، قرار مجلس الآثار في 2004/1/11. لكن الضغط العقاري وتغريب مخطط ايكوشار ساق مجلس الآثار الحالي إلى قرار مناقض في

2006/11/27

تفترض معرفة التاريخ معالجة الأحياء والأسواق العربية بالفرشاة والمعايير العلمية، وحماية نسيجها الإنساني الذي يحيط بالنسيج المعماري. نهمل تلك المعايير؟ فلنستشر اليونيسكو ومنظمة المدن الإسلامية! ألا نستقدم نظام المصارف والبورصة والاستثمارات من الخارج؟

من يعرف معايير حماية المدن التاريخية يتساءل الآن:

1 - هل ستقدم وزارة الثقافة باسم مديرية الآثار، إجازة "علمية" لينفذ بقية المشروع الذي يتناول شارع الملك فيصل فيكسر علاقة داخل السور بخارجه، ويجعل الأبنية التاريخية وسط بيئة غريبة، ويمهد لسحب دمشق من سجل التراث الإنساني؟

2 - هل ستؤكد حماية النسيج المعماري والإنساني في حي العمارة وحي العقبة المهددين بهذا المشروع؟

3 - هل سترفض طرد سكان الحمراوي وعرض بيوتهم للاستثمارات السياحية؟

4 - هل ستتابع طلب إلغاء الاستملاكات المدرسية وغيرها لتثبت حماية المدينة القديمة؟

5 - هل ستفحص المشروعات السياحية المقترحة في المواقع التاريخية والأثرية ومنها عمريت وأرواد؟ نتمنى أن تراقب وزارة الثقافة بدقة، ليس فقط مايكتب في الصحف، بل ما يسقط من صلاحياتها.

مسؤولية من يملك السلطة الثقافية والأثرية كبيرة في زمن تتلاطم فيه مشاريع متناقضة. فالدفاع عن المدينة العربية والتراث الوطني والأثري يعترض مصالح مالية كبيرة. وهو امتحان تكثر فيه العداوة والاستعداد. ويستلزم الزهد والصبر. أما المناظرة الحقيقية فهي بين الناس وسط أحياء المدينة القديمة التي يجب أن تعرض عليها المخططات المقررة لها! لنسمع آراء أهلها، ونشاورهم، لأن ننفذ مشروعنا بروح الوصاية. فهذا الزمن زمن الاستقواء بالناس لاستبعادهم! على عرض تلك الأحياء تتحرك كالسمك في الماء، ونتمنى أن يستطيع ذلك مسؤول في وزارة الثقافة.

[E - mail: daily@teshreen.com](mailto:daily@teshreen.com)

سورية — دمشق — كورنيش الميدان — هاتف : 2 / 1 / 2131100 — فاكس: 2246860